في الطريق إلى البيت ..

في موقف السيارات تقف (هدى) مرتدية معطفًا فضفاضًا بياقة ضخمة وأكمام عريضة طويلة، تتأبط حقيبة يد صغيرة، وقد تدلَّت حقيبة أخرى خلف ظهرها، فبدا جسدها النحيف ممتلئًا على غير حقيقته، احتل التوتر ملامح وجهها ، سمعتْ صوت الأذان ينطلق من مسجد مجاور، فأدركت أن الساعة قد تجاوزت السادسة، نظرت في الهاتف، أوشكت البطارية أن تفرغ.

_ تُرى هل أخطأتُ؟ هل كان عليّ انتظار الصباح، لكنني اضطررت لذلك، لن أقوى على المبيت وحدي.

لم يكن ذلك الأتوبيس الذي حضر بعد انتظار طويل متجهًا إلى قريتها مباشرة، لكن قد لا يأتي غيره حتى الصباح، فركبت كما ركب الجميع.

الجميع رغم اختلاف وجهاتهم تكدَّسوا داخل الأتوبيس الضخم، بدأ الظلام يرخي سدوله، أُنيرت أعمدة الكهرباء.. فانعكس ضوؤها فوق الأشجار على جانبي الطريق، بدا المنظر جميلًا.. لكنه كان لهدى مصدر فزع؛ فهي وحدها في هذه الرحلة الليلية، أخرجت الهاتف من حقيبتها؛ لتتحدث إلى أخيها، تقترب الساعة من الثامنة.. ما إن طلبت الرقم حتى أظلم الهاتف «آه.. لقد فرغت البطارية..!»

تنظر حولها بتوجّسٍ وحذرٍ، تتفحَّص وجوه الجالسين، وقد استبدّ بها الخوف من مجهول لا تدرك كُنْهه.

يجلس قبالتها شاب عشريني، أشقر الشعر يضع نظارة سوداء فوق رأسه، وسمّاعات الهاتف في أذنيه، أما جوارها فتجلس فتاة في سنها أو قد تكبرها بعام على الأكثر، ما إن جلست حتى بدأت تتحدث في الهاتف، ينخفض صوتها حينًا ويرتفع حينًا آخرَ، فيختلط بصوت المذياع، وقد اختار السائق محطة إخبارية لا يستمع إليها أحد، عمّ الضجيج وتداخلت الأصوات.

يقف هذا الأتوبيس الضخم البطيء عند مدخل كل قرية فينزل عدد من الركاب وفجأة.. نشب شجار بين أحد الركاب -وكان رجلًا في الخمسين- وبين الشاب صاحب السماعات، تطور الأمر من تراشق بالألفاظ إلى تشابك بالأيدي، فاضطر السائق للوقوف.

انزعجت (هدى)؛ فالمسافة التي تقطعها عادة في ساعة ونصف استمرت أكثر من ثلاث ساعات، وهي لا تفكر إلا في لحظة وصولها في تلك الساعة المتأخرة من الليل، وهؤلاء يتشاجرون، والفتاة تزعجها بحديث لا ينقطع، والأتوبيس البطيء توقف عن السير..!

انتهى الشجار بين الشاب والرجل الخمسيني، وبدأ الأتوبيس في الحركة مجددًا..

بدا مدخل القرية يلوح في الأفق، نزلت من الأتوبيس وكأنها مُقْدمة على موت محقق، الساعة الحادية عشرة في ليلة غاب فيها القمر خلف هذا الضباب الكثيف، ترى القرية وقد سكن أهلها تمامًا، فتشعر وكأن الفجر أوشك أن يطلع!

يجلس (الخفير) على كرسيّ، وقد تدثّر بمعطف ثقيل فلا تكاد تتبين رأسه من رجليه، وقد أشعل جذوة من النار بجانبه، سارت في هذا الضوء الخافت، بدأ الخوف يتملّكها، انخرطت في البكاء وهي تقف أمام أحد أعمدة النور تبدو بوجهها الصغير وعينيها الغارقتين في الدموع كعصفور ضعيف كُسِرَ جناحه، فانزوى ينتظر مصيره المجهول.

لاح نور قادم من بعيد، كانت سيارة (نصف نقل) بيضاء، تحمل بعض الصناديق، يقودها رجل قوي البنية مفتول العضلات يرتدي جلبابًا رماديًا خفيفًا لا يتناسب مع هذا البرد القارس، اقتربت السيارة منها، ارتعدت أطرافها وبدأت دقات قلبها في الازدياد، استولى الخوف على جميع أركانها، نزل الرجل من السيارة، بدا وكأنه شبح وسط الظلام، اتَّجه ناحيتها وهو يقول:

_ أي خدمة يا آنسة؟

تجمدت في مكانها، أحسّت وكأن شيئًا مخيفًا يقترب منها، وصدى صرخة مكتومة قد حُبِسَت في أعماقها عجزت عن إخراجها لكنها استجمعت نفسها، وحاولت إخفاء قلقها، أخرجت الهاتف من حقيبتها، ثم قالت:

_ كنت في الجامعة، تأخرت بسبب ظروف المواصلات.
_ تفضلي معي أوصلك حيث شئت.
امتقع لونها، ونظرت إليه بارتياب، ثم قالت:
_ شكرًا.. شكرًا لك!

_ الوقت متأخر، والوقفة هنا خطر.
_ أخي قادم الآن، إنني أنتظره.

أمسكت الهاتف، تظاهرت بالحديث مع أخيها، وصفت مكان وقوفها وهي ترفع صوتها بالحديث عمدًا؛ لتُسمع الرجل، فاستيقظ الخفير من نومه، وقبل أن تُنهي ذلك المشهد المفتعل خرج من بين أحضان الظلام نور دراجة نارية، وصوت شاب يصيح :

_ هدى..!
انشرح صدرها وانفرجت أسارير وجهها، انطلقت نحوه كالسهم، وارتمت بين يديه غارقة في دموعها، لقد كان هذا أخاها (خالدًا).